

جناية أحمد أمين

على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- ٧ -

—

يشهد الأستاذ أحمد أمين على نفسه فيقول :

« أين الشعر العراقي الذي تجد فيه الشعراء يتغنون بمناظر العراق الطبيعية ، ويصفون فيه أحداثهم الاجتماعية ؟ وأين الشعر الشامي أو المصري أو الأندلسي الذي يشيد بذكر مناظر الطبيعة وأحوال الاجتماع للشام ومصر والأندلس ؟ إنك تقرأ الشعر العربي فلا تعرف إن كان هذا الشعر لمصري أو عراقي أو شامي إلا من ترجمة حياة الشاعر . أما القلب كله فشيء واحد ، والموضوع كله ولحد : مديح أو رثاء أو هجاء أو نحو ذلك مما قاله الجاهليون » ذلك كلام أحمد أمين ، نقلناه بالحرف حتى لا نتهم بالتزويد عليه فهل رأيتم أغرب من هذا الكلام ؟

يمنتقد أحمد أمين أن شعراء العراق لم يصفوا مناظر بلادهم الطبيعية ولم يصفوا أحداثهم الاجتماعية

يقولون إن مصر جزء من الشرق ، وأن المصريين فريق من الشرقيين ؛ ثم يقول :

« إن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق » ... (ص ١٨) .

غير أنه لا يلبث أن يتناسى قوله هذا ، ويدخل المصريين في عداد الشرقيين ، في عشرات المواضع من الكتاب ... لا أرى حاجة في هذا المقام — لتمدادها ، فأكتفي بذكر ما يقوله المؤلف في هذا الشأن في أواخر الكتاب ، عندما يشرح اقتراحه في صدد فتح مدارس مصرية في الأقطار العربية . فإنه يقول إذ ذاك :

« ما أظن أن السياسة الوطنية لهذه الأقطار تذكره أن تتأسس فيها مدارس مصرية ، تحمل إلى أبنائها ثقافة عربية شرقية ، ويحملها إليهم معارفهم » ... (ص ٥٢٢) .

« ينبغي » ساطع المصري

ولو أنه كان اطلع على الشعر العراقي في عهوده الماضية ، وهي التي تمنيه ، لعرف أن شعراء العراق لم يفرطوا في الحديث عن أنهارهم وبيساتهم ، ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من شؤون المجتمع إلا أفردوها بحديث خاص ، وأخبار الفتن والثورات تشهد بذلك لو كان أحمد أمين اطلع على الشعر العراقي لعرف أن العراقيين فتنوا بمناظر بلادهم أشد الفتن . وهل يعرف قراء العربية نهراً أسير ذكر آ من الفرات ؟

ألا يكفي أن يكون فيهم الشاعر الذي قال :

يا ليت ماء الفرات يجربنا أن استقلت بأهلها السفن
وقد فتن العراقيون بطبيعة العراق فوصفوا الحثائم السواجع
وتفتنوا في وصف الليل ، وأجادوا في وصف الأزهار والياحين ، وأسهبوا في وصف الملاحاة والصباحة والجمال ، وكادوا يتفردون بالتفوق في وصف مجالس الأنس والشراب

وكيف شعراء العراق بوصفهم بوابهم وحواضرهم ، ولم أوصاف كثيرة في السيارات وحيوات الرهبان ، وهل أقيم في أديم العراق دير غفل عن وصفه الشعراء ؟

لو كان أحمد أمين من المطلعين لعرف أن العراقيين أحبوا الطبيعة أصدق الحب ، فهم الذين أذاعوا في الناس معاني الشغف بالوجود ، وهم أصدق من وصف الجأذر والظباء ، وكانوا ولا يزالون أقدر الناس على تذوق ما في الحياة من بؤس ونعيم هل نسي أحمد أمين أن طبيعة العراق هي التي أنطقت من يقول :

عميون المها بين الرصافة والجسر

جلين المهوى من حيث أدرى ولا أدرى
إن العراق الشاعر لا ينتظر حكم أحمد أمين ، فقد رقم أمجاده الشعرية فوق جبين الزمان . وهنا أستشهد بقول الشاعر على الجارم في خطاب دجلة :

نبت القريض على ضفا فك بين أفنان الورد
وهي كلمة صدق في شاعرية العراق

لقد وصف العراقيون كل شيء من مظاهر الطبيعة في العراق حتى الحيات والتمايين والعقارب والزناير والبراغيث
وأحمد أمين هو المسئول عن إيراد الشواهد لأنه من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية .

الاجتماعية فليشرح لنا كيف اتفق أن يموت كثير من شعراء
المراق بانقتل والاغتتيال

وهل يقتل الشاعر أو يقتال إلا بسبب الحرص على الجهر
بكلمة الحق ؟

وهل في آداب الأمم كلها أبرع سخرية من الشاعر الذي قال :
أنفوا المؤذن من دياركم إن كان ينفي كل من صدقا

وهو شاعر قد تأدب بأدب أهل العراق

إن ديوان الشريف يسور أكثر ما وقع في العراق من
الأحداث السياسية والاجتماعية في الشطر الأخير من القرن الرابع،
ففيه نرى ما وقع لأقطاب الكتاب من الكوارث والخطوب ،
وفيه نرى كيف انتهت حياة الخليفة الطائع ، وفيه نرى أخبار
القتال الذي دار بين السنة والشيعة ، وفيه نرى عدوان بني تميم
على بعض أصدقاء الشاعر من الزعماء

وما يقال عن ديوان الشريف الرضي يقال عن ديوان المتنبي فهو
سجل لأكثر الحوادث التي وقعت في الشطر الأول من القرن
الرابع . وهو تصوير لأكثر ما عرف من الأقطار العربية
والإسلامية . وهو تاريخ لأكثر من اتصل بهم من الوزراء
والرؤساء والملوك

وهل يمكن أن يقال إن أشعار المتنبي وهو في حلب تشابه
أشعاره وهو في مصر ؟

إن القول بذلك لا يقع إلا من رجل مثل أحمد أمين يستدل
بوحدة القوافي والأوزان على وحدة الماني والأغراض

وما رأى هذا الباحث المفضل في أشعار مسلم بن الوليد ؟
هل خطر بباله أن عند هذا الشاعر قصائد تؤرخ بعض الوقائع
الحربية ؟

وهل توجع الناس لمصرع التوكل إلا بفضل رائية البحترى ؟
وهل عرف الناس عزيزة المعتصم يوم عمورية إلا بفضل بائية
أبي تمام ؟

وبمناسبة هذين الشاعرين اللذين خدما الخلفاء في العراق
نتقل إلى شعراء الشام : فهم عند أحمد أمين لم يصفوا بلادهم
رلم يصفوا ما وقع فيها من أحداث اجتماعية

ويقول هذا الرجل إن المراقين لم يصفوا أحداثهم الاجتماعية
وأقول إن شعراء المراق يمتازون بالجرأة في وصف أحداث
المجتمع ، وفي العراق مات مئات من الشعراء مسمومين أو مفتولين
بسبب الجهر بكلمة الحق في وصف الأحداث الاجتماعية ، وما قامت
في العراق دولة أو سقطت دولة بدون أن تظفر بقصيدة أو قصائد
من أولئك الشعراء الذين كانت أشعارهم موازين في الحياة السياسية

وهنا أذكر مسألة سيحتاج إليها أحد أمين حين يؤرخ الحياة
الأدبية في العراق لمهد بنى العباس

يجب أن يكون مفهوماً عند كل أديب أن الدواوين التي تحفظ
أشعار أهل العراق لا تمثل الحياة الشعرية لأهل العراق تمثيلاً صحيحاً ،
فالذي بقي من أشعار أهل العراق هو الجزء الذي سمحت له السلطات
السياسية أن يعيش . وأكاد أجزم بعد أن خربت حياة العراق
أن الثروة الشعرية هناك ضاعت منها أشياء كثيرة جداً بسبب
الخوف من المسيطرين على الحياة السياسية والاجتماعية

وقد اهتمتبت إلى ذلك ، وأنا أدرس العصر الذي عاش فيه
الشريف الرضي : فقد تبينت أن العراق في ذلك العصر عرف
لوتين من الحياة : حياة السروحياة العلانية . وتيقنت أن الشريف
ضاع من حياته الشعرية نحو عشر سنين بسبب التخوف من عواقب
الجهر بكلمة الحق .

وقد صح عندي أن الشريف الرضي هو شاعر الثورة على
الاستبداد

ولكن شواهد هذا الجانب من حياته الشعرية قد ضاعت
: بقيت أشعار بشار في الثورة على رجال السياسة وأقطاب
المجتمع ؟

هل بقيت أشعار ابن الرومي في الحق على معاصريه من الحكام
والرؤساء ؟

لقد بقي منها ما جازت روايته ، وذهب شعره اللاذع إلى
غير معاد ؟

وكيف غاب عن أحمد أمين أن فقهاء العراق أنفسهم قد اشتهروا
في آرائهم بإبشار الرموز والكنايات ؟
إن كان أحمد أمين ينكر أن شعراء العراق وصفوا الأحداث

وكيف وهم الذين أذاعوا بين الناس أن النظر إلى الخضرة
يزيد في نور العيون ؟
هل يذكر أحمد أمين كم ألوفاً من المرات ذكرت الأشجار
والأزهار والرياحين في أشعار أهل الشام والعراق ؟
هل يستطيع أن يدلنا على شاعر واحد لم يوجه قلبه وشموره
إلى المظاهر الطبيعية ؟
وهل يصير الرجل شاعراً إلا بعد أن ينطبع إحساسه بمظاهر
الوجود ؟

أترك هذه الجوانب وأنتقل إلى حكمه على الشعر المصري ،
فالشعراء المصريون في نظره لم يكونوا إلا مقلدين لشعراء الشام
والعراق ...

ولأحمد أمين في هذا الحكم الجائر عذر مقبول ، لأنه لم يدرس
الشعر المصري دراسة تمكنه من الحكم له أو عليه ، فلو كان من
المطلعين لعرف أن الشعراء المصريين وصفوا بلادهم وتحدثوا عنها
بأقوى العواطف ، وتغنوا بحسان بلادهم أجمل غناء

وهل رأيت شاعراً أحسن الطبيعة كما أحسنها ابن النبيه إذ يقول:
إذا نُشرت ذوائبه عليه حبت الماء رف عليه ظل
وهل في العربية شاعر صور أوهام بلاده وما فيها من مختلف
الاحاسيس كما صنع البها زهير ؟ وهل عرفهم شاعراً شرب من
كوثر الوجود كما شرب ابن الفارض ؟

إسمع ، يا صديقي أحمد أمين ، فقد تواترت الأخبار بأنك
ستدرس الأدب المصري في كلية الآداب ، وليس من الكثير
عليك أن تسمع النصيحة من رجل مثلي ، فأنت تعرف منزلتك
في قلبي ، وتدرك جيداً أنني أعني أن تكون من الموقنين

إن الشعر المصري طراز خاص ، وله مزايا تفرد بها بين الأشعار
المروفة في اللغة العربية ؛ ولو ألفت قصيدة مصرية بين ألوف
من القصائد ، لعرف السامعون أن أزهارها تفتحت فوق شواطئ
النيل ...

وهل يستطيع — أحمد أمين — أن يقول بأن ديوان ابن
نباة المصري تمكن إضافته إلى البحري أو ابن الرومي أو مسلم
ابن الوليد ؟

إن أحمد أمين يصرح بأن الشعر العربي لا يدل على مواطن
أصحابه إلا بعد النظر في تراجم الشعراء .

فهل يعرف أن شعراء الشام كانوا من أحرص الناس على وصف
الطبيعة وأقدرهم على تمكيب أحداث المجتمع ؟
هل سمع أحمد أمين باسم شاعر يقال له الصنوبري أجاد
كل الإجابة في وصف المناظر الطبيعية ؟
هل يجمل أحمد أمين أن أبا فراس الحمداني سجل الصراع
بين العرب والروم أدروع تسجيل ؟
هل ينكر أحمد أمين أن الممرى وصف أحداث زمانه وصفاً
نادر المثال ؟

هل يعرف أحمد أمين أن شعراء الشام تغنوا بحسان بلادهم
وأسرفوا حتى قيل إن الشام جنة الأرض ؟
هل يعرف أحمد أمين أن اسم النوبة شرق وغرب بفضل
ما تنعني به أولئك الشعراء ؟

هل يذكر أن الهيام بالوصف كاد يصير طبيعة شامية يشهد
لها ما صنع البحري حين وصف إيوان كسرى بالعراق ؟
وهل يذكر أن قصيدة أبي تمام في وصف الريح لا تقل
روعة عن أعظم ما قال الأوربيون في الريح ؟
وهل يذكر أن مصالوة الذئب والأسود لم توصف بأجل
مما صنع البحري والمنبي ؟

وما رأى أحمد أمين في الصحراء ؟
أليست الصحراء من الطبيعة يا حضرة الأستاذ ؟
هي من الطبيعة بلا ريب . فهل تستطيع القول بأن شعراء
الشام وال عراق لم يصفوا الصحراء ؟

وما رأى أحمد أمين في حيوان الصحراء ؟
أليس من الطبيعة ؟ هو من الطبيعة بلا ريب ، وقد تعقبه
شعراء الشام والعراق بالوصف والتحليل

إن أحمد أمين لا يرى الطبيعة إلا في الشجرة والزهرة ، ولو
قال هذا رجل غيره لقلنا إنه ينظر إلى الوجود نظرة عامية

فهل يتفضل الأستاذ أحمد أمين فيدلنا عن أخذ هذا التعريف ؟
إن الطبيعة لها مظاهر كثيرة جداً ، فهي تشمل الإنسان
والحيوان والنبات والجماد ، وهي تشمل كل ما تراه العيون ،
أو تحسه القلوب ، أو تدركه العقول

فكيف جعلها مقصورة على الشجرة والزهرة ؟
ومع ذلك هل قصر شعراء الشام والعراق في وصف الأشجار
والأزهار ؟

والشام والعراق ، وهؤلاء المثة - ولا نقول المئات - كانت لهم مذاهب في وصف الطبيعة ، والتحدث عن المجتمع ، والأنس بالحياة أو التبرم بالوجود

وكانت لهم بجانب الشعر فقرات نثرية سوروا فيها آراءهم في حياة المجتمع . وهل كانت رسائل الخوارزمي وبديع الزمان وابن وشكبر إلا صوراً للأحداث الاجتماعية والسياسية ؟

وهل يحتاج الباحث إلى النص على أن الشعراء والكتاب كانت تراجمهم فرصة لدرس مشكلات السياسة والمجتمع ؟

من الذي يقول بأن شعراء مصر والشام والعراق لم يشتركوا في توجيه بلادهم إلى الأغراض السياسية والاجتماعية ؟ وهل كان الشعراء في تلك المهود إلا ألسنة السياسة والمجتمع ؟

قد يقال : وأين تقع الأشياء التي تجاف عن السياسة والمجتمع ؟ وأجيب بأنه ليس من المحتم أن تكون الأشياء كلها في السياسات والاجتماعيات ، إن صح أن وصف الدقائق الذوقية والوجدانية لا يمس المجتمع

ومن الذي يوجب أن تكون صورة المجتمع مقصورة على الصلات بين الفقراء والأغنياء ، والحاكمن والمحكومين ؟

إن الأمر في الشعر يرجع إلى عنصر واحد هو الصدق ، وإذا صح أن الشاعر صادق، الحس والم عاطفة فن حقه أن يتكلم كيف شاء وأن يصف من الأغراض ما يريد

لقد اتفق لعمر بن أبي ربيعة أن يصف أشعاره على أهوائه الذاتية فهل يمكن القول بأن أشعار ابن ربيعة لا تمثل جوانب من المجتمع الذي عاش فيه ؟

وكيف وهي تصوير لتورة المواطن في موسم الحج ، وتسجيل لبعض أهواء الناس في ذلك الحين ؟

واتفق لأبي نواس أن يقصر أكثر شعره على الخمر والمجون ، فهل كان ذلك إلا تمثيلاً لبعض أحوال المجتمع العراقي في ذلك العهد ؟ واتفق لأبي العتاهية أن تكون أكثر أشعاره في التهديدات ،

فهل كان ذلك إلا تخليداً لمظاهر النزعات الروحية في ذلك الزمان ؟ وما رأى الأستاذ أحمد أمين في أشعار الزهاد والنسائك ، وأشعار الماجنين والخلعاء ؟ وما رأيه في أشعار الزنادقة والمرتابين ؟

أليس ذلك كله تصويراً لأحوال المجتمع ؟

فهل يصح هذا القول في أشعار ابن نباتة والباها زهير ؟

وهل يصح ذلك في أشعار تميم بن المز ؟

وهل يصح ذلك في أشعار ابن النحاس وأشعار البوصيري ؟

وهل يصح ذلك في أشعار عمارة اليماني ، وقد عاش في مصر

حيناً من الزمان ؟

إن مصر قهرت من زارها من الشعراء على وصف ما فيها من طبائع وأخلاق ، ولعلها كانت السبب في شهرة من زارها من

الشعراء ، فكيف يصح القول بأنها لم تتفرد بين الأمم العربية بخصائص شعرية ؟

وهل يمكن القول بأن أغاريد صني الدين الحلي وهو في مصر تشبه أغاريدته وهو في العراق ، أو أن أشعار ابن سناء الملك لا تدل

دلالة صريحة على الوطن الذي عاش فيه إلا بعد الاطلاع على ترجمته ؟ إن البارودي - وهو شاعر اصطنع مذاهب القدماء في الأخيصة

والتماير - تدل على مصريته لأول نظرة ! فإياك بالشعراء المصريين الذين استوحوا فطرتهم ولم يتابعوا شعراء بني أمية

أو شعراء بني العباس ؟

بقيت مسألة مفصلة بهذا المجال ، ونحب أن نوفيها بعض ما تستحق من الشرح قبل أن نتكلم عن أحكامه على الأدب الأندلسي ، وهي أحكام سيحاسب عليها أشد الحساب !

ما رأى حضرة الأستاذ في الأشعار العراقية والشامية والمصرية التي صورت ثورة أصحابها على الدنيا والناس ؟

أبظن أن شعراء العصر الأموي والعباسي في تلك الأقطار تحدثوا عن زمانهم وديانهم ، كما تحدث الجاهليون ؟

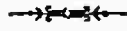
لقد نشأ في الشعر فن يسمى « شكوى الزمان » فهل يراه من وصف المجتمع ؟ أم يراه من الثورات النفسية ؟

إن كان من وصف المجتمع ؟ فهو ثروة عظيمة تنفض رأى أحد أمين ، وإن كان من الثورات النفسية فهو أيضاً من وصف المجتمع لأنه شرح لأسباب الثورة على الدنيا والناس

لو كان أحمد أمين كلف نفسه عناء الاطلاع على ديوان أو ديوانين قبل أن يصدر تلك الأحكام الخواطئة ، لعرف أن من

المتسجيل أن تكون تلك الثروة الشعرية من لغو القول . فقد حفظ التاريخ الأدبي أكثر من مئة شاعر من الفحول في مصر

بين جنائية الأدب الجاهل والجنائية عليه للأستاذ عبد الجواد رمضان



أنا من أزهّد الناس في الكتابة وأقلهم رغبة في المناقشات الصحفية الأدبية والعلمية ، على كذّة جاعة في مطالعتها ، ورغبة ملحة في تتبعها ، وشوق عنيف إلى ما يتخللها من حيلة بارعة وسرعة خاطر ، وصراحة مكشوفة ومداورة خادعة ، وحجة مصيبة أو خاطئة ... الخ

ولعلّ مشهداً من المشاهد لم يثر في نفسى شهوة التدخل بين طرفيه ما أثاره موضوع الموسم بين الدكتورين : زكي مبارك وأحمد أمين ، أو الأستاذين العظيمين : أحمد أمين وزكي مبارك « على التقلب يا دكتور » . وأعوذ بالله من شهوة الكلام قفلاً فصلت خطة أو حسمت موقفاً أو أصابت مقطوعاً يحسن السكوت عليه ويفتحي على حده انخسام ؛ ولولا ما في أمثال هذا الحوار من استعراض الآراء واستثارة شتى المذاهب والبحوث وجلاء القوى العلمية بين المتحاورين مما يعود بالخير على العلم والأدب ، ويفتح أغلاق النظر أمام الباحثين لكان في إثارتها جنائية أى جنائية ، وإجرام أبلغ إجرام

المتحاوران في موضوع الموسم عظيمان ما في عظمتها مطعن ، جليلان ما في جلالها مغمز ؛ ولئن اختلفت جهات الجلال والعظمة فيهما ، إيهما ليلتقيان في أنهما قطبان ينفرج عن جهودهما في البحث والنظر فضل كبير وخير وفير

عرفنا الأستاذ الكريم أحمد أمين رجلاً رزين المجلس ، رصين العقل ، حصيف الرأي ، بعيد الأناة ، عفاً القلم واللسان . يطالع الناس من آثاره سمت العلماء وجلال المتواضعين ، ونظرات المجرى وثبات المستقيمين ، لا يزهاه النجاح وإن أعجب وبهر ، ولا يثيره اللجاج وإن احتدم وزخر ، بل يمضي قدماً إلى الهدف الذى قصد ، والناية التى نشد . ذلك أحمد أمين لمن لم يعرفه وأما دكتورنا زكي مبارك ، فذلك الأديب الناثر الشاعر الناثر السنتريسى الباريسى ، الأزهرى الفرنجى الذى خلص له في هذا الجيل أن يجمع بين أدب الزنادقة ، وإخلاص للتصوفة ، وواخي

وما رأيه في الأشعار التى قيلت في وصف الإخوان والأبناء والأزواج ؟
أيراها أجنبية عن المجتمع ؟
الحق أنى أجاهد في غير ميدان ، وأعارك في غير معترك ، لأنى أشرح البيهيات ، وأقيم الأدلة على أن الجزء أصغر من الكل وأن الواحد نصف الاثنين !

ولكن هل كنت أملك أن أصنع غير الذى صنعت ؟
إن جمرة القراء لم تكن تعرف أن الأستاذ أحمد أمين يخطئ ثم يصّر على الخطأ ؛ ولم تكن تنتظر أن أجهم عليه وأنا الذى دافعت عنه في مجلة الرسالة يوم نجى عليه بعض أدياء لبنان وقد تسفل بعض أدياء العراق فدعاني إلى أن أنبه الأستاذ أحمد أمين إلى اهتمامه في الأيام الأخيرة بالدعوة إلى تعزيز اللغة العامية

فهل يظنون أنى موكل بتقويم الأستاذ أحمد أمين ؟
إن المهم هو تذكيره بمواقب ما يصنع في التجنى على الأدب العربى وتخويفه من غضبة من وثقوا فيه يوم رأوه مشغولاً بالدراسات الإسلامية ، وكان يستحق الثقة قبل أن يصنع بنفسه وبغاضيه ما صنع

وبفضل فريق من الباحثين قدّموا إلى شواهد من أغلاط أحمد أمين في مؤلفاته ودعوني إلى عرضها في هذه البحوث النقدية فليعرفوا — مشكورين — أنى لا أستطيع ذلك ، لأنى لا أحب أن يسوء رأى الناس في مؤلفات أحمد أمين ، رغم ما فيها من أغلاط ، فقد عانى مثل الذى نعانى من إقضاء الميول تحت أضواء المصاييح

ليس المهم أن نهدم الأستاذ أحمد أمين — فذلك غاية صغيرة — ولكن المهم أن نكف شره عن الأدب العربى وأن نرجو من يتطلع إلى مثل غرضه من عوام الباحثين

المهم أن يعرف الأستاذ أحمد أمين أن في مصر رقابة أدبية تصد الجامعين ، وتهدى الحائرين ، وهو يعرف في سريرة نفسه أنى لا أجهم عليه إلا وأنا آسف محزون ، لأنه كان مثلاً للصديق الأمين وبعد مقال أو مقالين أو مقالات سأتركه ليقسم هواء البحر وهو آمن بشواطئ الإسكندرية بين رفيف القدود وهدير الأمواج
« لحدث شجون »
زكى مبارك